

## محاضرة حول الاتجاه التجريبي:

### تجريبية دافيد هيوم:

لم يكن الفيلسوف "دافيد هيوم" بمنأى عن هذه الاهتمامات التجريبية التي كان أثرها يمتد في نطاق واسع يعمل على تثبيت أركانه وفي تقوية وجوده على الساحة الثقافية، سعياً منه تجاوز المخلفات الفكرية التي تركتها الفلسفة العقلانية، خصوصاً في مسألة احتواء العقل على الأفكار الفطرية ومفهوم الذات التي بدأت تتعرض إلى عواصف فكرية وحملة نقدية مكثفة للكشف عن القناع الذي كان يقف خلف الحقائق المضرة والتي توجد خارج الذهن، فما طبيعة النسق التجريبي الذي تبناه "دافيد هيوم"؟

### 1- الشك:

قد يقع التساؤل منذ البداية حول إمكان اعتبار "هيوم" من الشكاك؟ هذه المسألة أثارت الكثير من الجدل والخلافات الفلسفية، حيث يؤكد "لابورت"، هيوم من أتباع مذهب الشك المطلق، بينما يرى "لوروا" أن نزعة "هيوم" تصنف ضمن الاحتمالية وليس الشك، لكن الجميع يتفقون على أن "هيوم" يضع حدوداً لإمكان المعرفة، لكن الخلاف في واقع الأمر يتعلق بمسألة حدودها.

يتميز "هيوم" بين نمطين من المعرفة: العلاقات بين الأفكار، ثم الوقائع. ومن خصائص النمط الأول، أي العلاقات بين الأفكار، فهناك إمكانية اكتشافها بواسطة عملية الفكر وحدها دون الاستناد إلى أي شيء يوجد في الكون. والحقائق الضرورية التي يمكن أن نضعها في هذا المجال هي حقائق صورية محضة، ومحكمة لكنها خاوية. والنتائج التي نصل إليها هنا ليست ضرورية إلا بسبب اتفاق العقل مع التعريفات التي وضعها. وهذا أظهر ما يكون في الحقائق الرياضية.

وعلى خلاف هذا تماماً تكون الحقائق المتعلقة بالوقائع فإذا كانت الانطباعات تفرض نفسها على عقولنا، فإن الأمر ليس كذلك بالنسبة إلى النتائج التي نصل إليها ابتداءً من الوقائع. وهذه هي حال العلية. ومن هنا شكك فيه هيوم، كما شكك في كل الاستقراءات المبتدئة من التجربة: إنها مجرد احتمالات. إن كل تأكيد يتعلق بالوقائع يجب أن يقتصر على الانطباعات

على التجارب الجزئية، لا على النتائج المبرهن عليها من انطلافاً من هذه الانطباعات أو التجارب الجزئية<sup>1</sup>.

هذه الحائق التي يتم الكشف عن مضمونها، تحصل بفعل الشك الذي يأتي لأغراض فلسفية يريد به "هيوم" أن يزيح اللبس عن المعارف المستقرة في العقل، "فكانت حسية هيوم وشكه في المعارف العقلية تعبيراً عن احتياجات عصره الذي اكتشف عدم تطابق النظريات المسبقة مع التجربة، ففرض كل القوانين العقلية، وآمن بشهادة الحس، واعتبر كل التصورات والمفاهيم العقلية مجرد نتاج للحس وللعادة وللربط بين العلة والمعلول وتداعي المعاني"<sup>2</sup>.

## 2- مبدأ السببية:

هذا التحول، سمح بإعادة النظر في مبادئ العقل التي تحكم النظرة العلمية وردّها إلى مصدرها التجريبي، وتفسير "هيوم" للسببية نموذج كلاسيكي، إذ الرابطة السببية بين حادثتين في رأيه، ليست في الواقع إلا تتابعهما على نحو مطرد، وهو تتابع تفصح عنه المشاهدة. أما فكرة الضرورة فلا وجود لها إلا في الذهن، وتوقعنا لحادث المسبب (ب) بعد حدوث السبب (أ) لزوماً، مرده تتابع الحادثتين في الخبرة الماضية بشكل متكرر، وباطراد لا غير، لهذا نقل بشكل مشروع مبدأ السببية من المبدأ العقلي إلى المبدأ الواقعي، "ومع هذا، فإن منطق هيوم منطوق الشاك الخاص الذي هاجم الدين والميتافيزيقا، وأنكر حتى الاستقراء إنكاره لأي تلازم في الوقوع بين ظاهرتين وفي مجال الاستقراء كل انتقال من الظواهر إلى مفاهيمها عمل عسفي برأيه، والأكثر تعسفية تحويل المفهوم إلى معادلة رقمية صحتها ليست من الرياضيات، بل القياسات التي تنتج عنها"<sup>1</sup>.

ونفس الشيء يفعله هيوم بخصوص مبدأ السببية حيث يرفض الموقف العقلاني الذي يرى بأن مبدأ السببية مبدأ عقلياً خالصاً، وأنه موجود في العقل بشكل فطري، ويقول على العكس من ذلك، وتماشياً مع نزعتة التجريبية، بأن مستمد من العادة والخبرة الحسية.

من هنا يرى هيوم أن العقل وحده لا يمكنه بدون خبرة حسية أن يقدم لنا أحكاماً صحيحة عن الواقع.

يقول هيوم: ” إذا ما ارتبط شيان ارتباطا لا تخلف فيه – كالحرارة واللهب مثلا، أو الثقل والصلابة – فإن العادة وحدها عندئذ تقتضينا أن نتوقع أحد الشئيين إذا ما ظهر الآخر ”.

من هنا فالعادة عند هيوم، هي الأساس الذي يزودنا بالأفكار التي نكونها عن الوقائع والترابطات القائمة بينها. " إن الفكرة الواحدة تفتح السبيل امام فكرة أخرى بصفة طبيعية ويجب ان لا ينظر إلى مبدأ اتصال الأفكار هذا كما لو كان اقتراناً لا انفصام له، إذ ان مثل هذه الاقتران قد وقع نفيه عن التخيل ومع ذلك فإنه يجب أن لا نستنتج من ذلك أن الفكر من دونه يعجز عن الجمع بين فكرتين، إذ ليس هناك ما هو أكثر حرية من هذه الملكة. لكنه يجب علينا فقط أن ننظر إلى مبدأ الجمع هذا على أنه قوة هادئة تحالفها الغلبة عادة، وهي السبب من بين أمور أخرى في ايجاد التطابق الضيق بين اللغات على أساس أن الطبيعة إن صح التعبير تعين لكل إنسان الأفكار البسيطة الأكثر صلاحية للاتحاد في شكل فكرة مركبة"<sup>2</sup> ينظر إلى مبدأ اتصال الأفكار هذا كما لو كان فأصل كل استدلالنا هي الخبرة الحسية والناجحة عن "العادة" وليس عن التدليل العقلي.

وفي هذا السياق يقول هيوم: ” العادة هي المرشد العظيم للحياة البشرية؛ فهذا المبدأ وحده (أي العادة) هو الذي يجعل خبرتنا ذات نفع لنا، ويتيح لنا أن نتوقع في المستقبل سلسلة من الحوادث الشبيهة بسلسلة الحوادث التي ظهرت فيما مضى ”.

هكذا فنحن قد تعودنا مثلا، أن نرى الورق يحترق حينما نقره من النار، فيسمح لنا هذا التعود أو العادة بأن نتوقع احتراقه مستقبلا حينما نقره من النار. وهذا التوقع هو احتمالي عند هيوم؛ إذ ليس هناك ضرورة عقلية تقرر أنه لا بد أن يحترق الورق بالنار مستقبلا، فيمكن أن لا يحدث ذلك في المستقبل.

### 3- الهوية الذاتية:

لقد شك "دافيد هيوم" في بدهاة المصادر التي تبني عليها الأطروحة القائلة بوجود هوية شخصية ثابتة التي دافع عنها "ديكارت" وبشكه في المصادرة التي تقول بأن فكرة "الأنا أفكر" يمكن إدراكها عن طريق الحدس العقلي، نظرا لبساطتها ووضوحها وتميزها، لذلك يكون

الغرض من مراجعة الطرح الفلسفي لهذه الفكرة في مفهومها، هو إيجاد إمكانية تجريبية ملائمة لتقويض أركان اليقين الديكارتي. لهذا يقول: " أن يكون للفكرة الواقعية انطباع يولدها. لكن الأنا أو الذات ليس انطباعاً بل هو ما من شأنه أن ترجع إليه مختلف انطباعاتنا وأفكارنا... فهناك فريق من الفلاسفة يقول أننا نكون في كل لحظة على وعي بما نسميه فينا نفساً، أما أنا غذا ما أوغلت داخل إلى صميم نفسي، وجدتني أعثر على هذه الإحساسات الجزئية، ادراك للضوء أو الظل أو للحب والكراهية وباللذة والألم... فلأيمكنني أن أعرف نفسي (أنا) في أية لحظة دون ادراك ما "1 .

إن القول بأن ما يميز الهوية الشخصية هو بساطتها ووضوحها وثباتها عبر الزمن هو قول غير بديهي وغير مقبول في نظر "هيوم"، ذلك لأن تشكيل فكرة عن الذات أو الهوية الشخصية يستلزم توفر انطباعات وأحاسيس تكون على درجة من الثبات والاستمرار اللذان يمثلان الشرط الضروري لبروز هوية شخصية؛ والحال أن جميع أحاسيسنا، كإحساس بالألم أو اللذة والشعور بالحزن أو الفرح... الخ، تبقى مؤقتة وعابرة لا تستقر على حال، لذلك يكون مفهوم الذات يقوم على ضوء الادراكات الجزئية. لهذا لم يقتنع بالرؤى الميتافيزيقية التي تجهزت بها الفلسفة، فتصبح المعرفة لا تطلب لذاتها، وإنما العمل على تغيير الواقع بالمعرفة، " لقد رأى "هيوم" أن المعرفة تستدعي المبادئ الذاتية التي بفضلها تتمكن من تجاوز ما هو معطى "1.

هذه الرؤية الثاقبة التي أطلقتها الفلسفة التجريبية، قد عكست مدى ذبوع الاجتياح العلمي الذي يساهم بدوره في تبديد الأوهام والخرافات والاعتقادات التي طوقت العقل من قبل، فعملت على تحريره عن طريق نشر المعرفة ذات الطابع التجريبي.

هذه المساعي الفكرية التي قدمها المذهب التجريبي برزت خلف أزمة عميقة مرت بها المجتمعات الأوروبية، قد أزاحت الكتل الظلامية من طريقها، بفضل مجهود فلسفي لم تنضب طاقته عندما تحملها الفلاسفة بكل شجاعة وجرأة، إيماناً منهم أن وظيفة الفلسفة هي التغيير الفكري للإنسان، وهذا التغيير هو الذي يعكس حجم التطور الفعلي الذي تشهده الفلسفة والعلم عندما تنقد المفاهيم العرجاء الخاوية من كل مضمون واقعي.

---

## المصادر والمراجع:

- D .Hume : Traité de la nature humaine, trad, A. Leroy, édition Aubier, Paris, 1962.<sup>2</sup>
- عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، ج 2 .
- حسن حنفي: قضايا معاصرة في الفكر الغربي المعاصر.
- هاني يحيى نصري: دعوة للدخول في تاريخ الفلسفة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 2002.
- Gilles Deleuze : La philosophie critique de Kant, PUF, Paris, 1967, p. 17.
- عبد الغفار مكاوي: لم الفلسفة، منشأة المعارف الإسكندرية مصر، 2006.